القوة الحربية لمصر والشام
فى عصر الحروب الصليبية

للأستاذ أحمـــد أحمد بدوى

— ٣ —

وكان للجيش ديوان يشرف عليه من الناحية الإدارية والمالية. وكان الجندى فى ذلك الحين موسعاً عليه فى الرزق، بل كان الخير يغدق عليه أحياناً من ناحية المتنافسين على تولى زمام السلطان، فعندما وزر شاور مثلا زاد الأجناد على ما كان لهم عشر مرات(١)

وفى العصر الفاطمى كان الجنود يتقاضون مرتباتهم نقودا، ويظهر أنهم ما كانوا يأخذون مرتباتهم شهرياً، وإنما كان يعطى لهم فى العام مرة، وأن هذه المرتبات تبلغ ثلث خراج الدولة، يفهم ذلك من قول المقريزى فى خططه (حـ٢ ص ٢٤٩): وكانت العادة إذا مضى من السنة الخراجية أربعة أشهر تدب من الجند من فيه حماسة وشدة، ومن الكتاب المدول، وكاتب نصرانى، فيخرجون إلى سائر الأعمال لاستخراج ثلث الخراج على ما تشهد به المكلفات المذكورة، فينفق فى الأجناد، فإنه لم يكن حينئذ للأجناد إقطاعات.

ولكن نور الدين محموداً بالشام فضل أن يعطى جنده إقطاعات ينالون منها أجورهم. وكان الجندى إذا مات أعطى إقطاعه لولده فإن كان صغيراً رتب معه من يلى أمره حتى يكبر؛ فكان أجناده يقولون: الإقطاعات أملاكنا، يرثها أولادنا الولد عن الوالد فنحن نقاتل عليها(٢)؛ وسارت الدولة الأيوبية والمملوكية على هذا النظام فكانت تمنح الأمير وأجناده الإقطاع، على أن يكون للأمير الثلث ولأجناده الثلثان، فلا يمكن الأمير ولا مباشروه أن يشاركوا أحداً من الأجناد فيما يخصهم إلا برضاهم. وكان الأمير لا يخرج أحداً من أجناده حتى يتبين للنائب موجب يقتضى إخراجه. فحينئذ يخرجه نائب السلطان، ويقيم عند الأمير عوضه

(١) النجوم الزاهرة حـ ٥ ص ٣٢٨.
(٢) خطط المقريزى حـ ٢ ص ٣٥١.

وكانت إقطاعات جند الأمراء على ما يراه الأمير من زيادة بينهم ونقص، ومن مات من الأمراء والجند قبل استكمال مدة الخدمة حوسب ورثته على حكم الاستحقاق، فإما أن يرجع منهم، وإما أن يطلق لهم على قدر حصول الغناية بهم. وإقطاعات الأمراء والجند، منها ما هو بلاد يستغلها مقطعها كيف شاء، ومنها ما هو نقد على جهات يتناولها منها. وكان لجميع الأمراء على السلطان الرواتب الجارية فى كل يوم من اللحم وتوابله كلها والخبز والشعير للخيل والزيت؛ ولبعضهم الشمع والسكر والكسوة فى كل سنة، وكذلك لجميع مماليك السلطان وذوى الوظائف من الجند. ولكل أمير من الخواص على السلطان مرتب من السكر والحلوى فى شهر رمضان، ولسائرهم الأضحية فى عيد الأضحى على مقادير رتبهم، وكانت الخيول السلطانية تفرق على الأمراء مرتين فى كل سنة(١).

وفى الحملات الحربية الكبرى كان بعض السلاطين يلجأ إلى فرض ضرائب جديدة على الشعب المصرى كما حدث فى عهد قطز فإنه عند ما أزمع حرب التتار أخذ من أهل مصر والقاهرة على كل رأس من الناس من ذكر وأنثى ديناراً واحداً، وأخذ من أجرة الأملاك والأوقاف شهراً واحداً، وأخذ من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلا، وأخذ من التركة الأهلية الثلث من المال وأخذ على القيطان والسواق أجرة شهر، فبلغ جملة ما جمعه من الأموال فى هذه الحركة ستمائة ألف دينار. وبهذه الأموال جند جيشاً هزم التتار لأول مرة فى تاريخ حياة التتار.

والقارىء لوصف المجلس الاستشارى الذى عقده قطز من علية القوم لفرض ضرائب جديدة للجيش يرى ما كان عليه هذا الجيش من سمعة فى الحياة. والحق أن سلاطين ذلك الحين لم يضنوا على جيوشهم، لعلمهم بأنهم الساعد والعضد فى الدفاع عن أرض الوطن. ولم يكن الجند يخرجون إلى قتال إلا وهم مغمورون بالرزق والعطاء. أنفق الأشرف خليل ابن قلاوون فى سنى حكمه الثلاث ثلاث نفقات: الأولى فى أول جلوسه فى السلطنة، والثانية عند توجهه إلى عكا، والثالثة عند توجهه إلى قلعة الروم.

***

(١) المرجع السابق ص ٣٥٠ و ٣٥١ و ٣٥٢.

وكما عنى الفاطميون بإنشاء جيش بري لجب يحفظ ملكهم ، ويصون إمبراطوريتهم ، لم يغفلوا عن أن بلادهم — ولها شواطئ مترامية الأطراف على بحرين عظيمين الأبيض والأحمر — تحتاج إلى أسطول ضخم يصون الحمى ويحمي الذمار ، فأنشأ المعز لدين الله قوة بحرية مكونة من أكثر من ستمائة قطعة (١) ، وقد أعانته تلك القوة وأعانت خلفاءه على تثبيت سلطانهم وحفظ هيبتهم .

ولكي ينال الأسطول ما يستحقه من الرعاية أنشأت الدولة له ديواناً خاصاً (٢) يقال له ديوان المهائر ، يعنى به من الناحية الإدارية والمالية .

وزاد عدد جنده على خمسة آلاف مقاتل (٣) ، لهم عشرة قواد يعين منهم واحد رئيس الأسطول ، فإذا ساروا إلى الغزو كان هو الذي يقلع بهم ، وبه يقتدي الجميع ، فيرسون بإرسائه ويقلعون بإقلاعه . وعلى الأسطول مقدم يكون أميراً كبيراً من أعيان أمراء الدولة وأقوامها نفساً ، وللجند عشرون عريفاً يسمون النقباء هم الذين يفرقونهم ويجمعونهم إذا كان غزو .

ولقواد الأسطول مرتبات يصل أعلاها إلى عشرين ديناراً في الشهر ، وبعضهم يأخذ خمسة عشر ديناراً ، أو عشرة دنانير أو ثمانية أو دينارين ، وذلك أقل مرتباتهم (٤) . وللجند الأجور والجرايات مدة سفرهم لكل واحد خمسة دنانير ، أما بعد عودتهم فإنهم ينالون رزقهم بكدهم ، ويكونون على استعداد للغزو إذا طلبهم الشريف له .

وتنفق الدولة على الأسطول من إقطاعات خصصت به تعرف بأبواب الغزاة وفيها ما يرد إلى الخزانة من ثمن القطرون الذي احتكرته الحكومة .

فإذا أراد الأسطول الغزو جمع النقباء له الرجال من غير أن يكرهوا أحداً على السفر ، ثم يعين الخليفة يوماً للنفقة يجلس فيه ومعه الوزير ، كما يحضر صاحبا ديوان الجيش وهما المستوفي والكاتب . وللمجلس أنطاع تنصب عليها الدراهم ويحضر لذلك الوزانون لبيت المال ، فإذا تهيأ الإنفاق أدخل الغزاة مائة مائة ، وتكون أسماؤهم قد رتبت في أوراق لاستدعائهم بين يدي الخليفة ، فيستدعي مستوفي الجيش من تلك الأوراق واحداً واحداً ، فإذا كمل عددهم عشرة وزن الوزانون لهم : لكل واحد خمسة دنانير ، ويستمر ذلك مدة أيام متوالية مرة ومتفرقة مرة ، فإذا تكاملت النفقة وتهيأت السفن للسفر خرج الخليفة والوزير إلى ساحة النيل بالمقس خارج القاهرة ، وكان هناك منظرة يجلس فيها الخليفة لوداع الأسطول ولقائه إذا عاد ، فإذا جلس للوداع جاءت القواد بالمراكب من مصر إلى هناك ، لقيام عناورة بين يدي الخليفة ، وهي متكملة عددها وأسلحتها وما فيها من المنجنيقات ، فيرى بها ، وتنحدر المراكب وتقلع ، وتفعل سائر ما تفعله عند لقاء العدو ، ثم يحضر المقدم والرئيس بين يدي الخليفة فيودعها ويدعو للجماعة بالنصر والسلامة . ويعطي المقدم مائة دينار وللرئيس عشرين ديناراً . وينحدر الأسطول إلى دمياط ، ومن هناك يخرج إلى البحر الأبيض للغزو والجهاد ؛ فإذا أدى واجبه عاد وخرج الخليفة أيضاً للقائه (١) . ومن ذلك يبدو مقدار اهتمام الخليفة بالقوة البحرية ومدى عنايته بأمرها . وكانت العادة أن ما غنمه الأسطول من المال والثياب ونحوهما يكون لغزاة الأسطول لا يشاركهم فيه أحد وليس للخليفة سوى الأسرى والسلاح .

ولم يزل أمر الأسطول منبأ به طول عصر الدولة الفاطمية ، وإن كانت عدد سفنه قد قلت في عهد الحروب الصليبية ، ولكنها لم تنقص عن نحو مائة قطعة في آخر عهد الدولة الفاطمية . فلما دخل الفرنج أرض مصر في عهد شاور خاف أن يقع الأسطول الفاطمي في يد ملكهم صرى ، فأحرق جزءاً كبيراً منه ، ونهبه العبيد فيما نهبوا (٢) ، وهكذا فقدت مصر جزءاً كبيراً من قوتها البحرية بسبب هذا العراك الدميم على السيطرة والسلطان بين وزراء ذلك الزمان .

فلما جاء صلاح الدين رأى واجباً عليه لكي يتم رسالته أن يعنى بأمر الأسطول يحارب به أساطيل الصليبية ؛ ففي سنة ٥٧٢ وهو مقيم بالإسكندرية رأى الأسطول وقد أخلقت سفنه ،

(١) خطط المقريزي حـ ٣ ص ٣١٣
(٢) الإسلام والحضارة العربية لكرد علي حـ ٢ ص ٣٨٤
(٣) صبح الأعشى حـ ٣ ص ٥١٩
(٤) خطط المقريزي حـ ٣ ص ٣١٣

(١) المرجع السابق
(٢) خطط المقريزي حـ ٣ ص ٣١٣

وتغيرت آلاته فأمر بتعميره ، وجمع له من الأخشاب شيئاً كثيراً ومن الصناع عدداً جماً ، حتى إذا تم صنع المراكب أمر بحمل إليها ما هي في حاجة إليه من السلاح والعدد وشحنه بالرجال ، وولى فيه أحد أصحابه ، وخصص له إقطاعاً خاصاً [١] ، وموارد ثابتة يجبى منها مقدار ضخم ينفق عليه [٢] ، وزاد في دينار الأسطول ، فجعله يساوى نصف دينار وربعه بعد أن كان يساوى نصف دينار وثمنه [٣] ، وأفرد للأسطول ديواناً خاصاً سلمه إلى أخيه الملك العادل [٤] ، وأعطى صلاح الدين صاحب الأسطول سلطة كبرى في تغيير رجاله وإعداد سلاحه ، فكتب إلى سائر البلاد يقول : القول قول صاحب الأسطول وألا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج إليه . واشتهر من قواد البحر في عهد صلاح الدين القائد العظيم لؤلؤ [٥] . وبلغت عدة الأسطول سنة ٥٧٥ ستين شينياً وعشرين طريدة [٦] ، ولا بد أن يكون عدد قطع الأسطول قد زاد بعدئذ ، فإن صلاح الدين ما كان يضن على هذه القوة البحرية بمال .

واستمرت العناية بأمر الأسطول قليلا بعد وفاة صلاح الدين . ثم قل الاهتمام به وصار لا يفكر في أمره إلا عند الحاجة إليه ، فإذا دعت الضرورة طلب له الرجال ، وقبض عليهم من الطرقات وقيدوا في السلاسل نهاراً ، وسجنوا في الليل حتى لا يهربوا ، ولا يعطون إلا قليلا من الخبز ونحوه ، وربما أقاموا الأيام بغير شيء كما يفعل بالأسرى من العدو ، فصارت خدمة الأسطول عاراً يهرب به الرجال ، وإذا قيل لرجل في مصر يا أسطولى غضب غضباً شديداً بعد أن كان خدام الأسطول يقال لهم المجاهدون في سبيل الله والغزاة لأعداء الله ، ويتبرك الناس بدعائهم [٧] .

ثم عادت العناية بأمره في عهد الصالح أيوب ، وكان له أكبر الأثر في معركة المنصورة [٨] كما رأينا ، وأهمل أمره بعد ذلك حتى أيام بيبرس فاستدعى رجال الأسطول وأمر بصنع السفن وقطع الأخشاب لعمارتها ، وكان يشرف على صنعها بنفسه [١] ، ويجلس بين الأخشاب والعمال ويقتدى به الأمراء فيحملون بأنفسهم آلات الشواني ويساعدون في صنعها [٢] ، وبنى أكثر من أربعين سفينة وعدة كثيرة من الحراريق والطرائد [٣] وذلك في شوال سنة ٦٦٩ [٤] ، ولما حطم هذا الأسطول عند قبرص أعيد بناء غيره ، وخرج بيبرس لاستعراضه ، كما كان يركب مع الخليفة لمشاهدة مناوراته الحربية في النيل [٥] . وفي تقليد الخليفة لبيبرس يوصيه بالعناية بأمر الأسطول ويقول له : وكذلك أمر الأسطول الذي ترجى خيله كالأهلة ، وركائبه سابقة بغير سائق مستقلة ، وهو أخو الجيش السليماني ، فإن ذاك غدت الرياح له حاملة ، وهكذا تكلفت بحمله المياه السائلة ، وإذا لحظها جارية في البحر كانت كالأعلام ، وإذا شبهها قال هذه ليال تقلع بالأيام [٦] وهذا التشبيه يدل على أنها كانت تطلى بالنون الأسود . فلما كان عهد قلاوون رأينا في الحملة التي وجهها إلى بلاد النوبة سنة ٦٨٨ خمسمائة مركب ، ما بين حراريق وغيرها [٧] .

وفي عهد خليل بن قلاوون زادت العناية بأمر الأسطول حتى كانت عدة الشواني محوستين شونة ملأها بالعدد وآلات الحرب . وعزم السلطان على الخروج لمشاهدته ، فأقبل الناس من كل صوب يريدون أن يشهدوا تلك القوة البحرية الضخمة ، واستعدوا لذلك قبل مقدم السلطان بثلاثة أيام ، وصنعوا لهم أخصاصاً على شاطىء النيل ، وأكثروا الساحات التي قدام الدور ، بحيث لم يبق بيت بالقاهرة ومصر إلا خرج أهله أو بعضهم لرؤية ذلك . ولما حضر السلطان برزت الشواني واحدة بعد واحدة ، وقد عمل في كل شونة برج وقامة تحاصر ، والقتال عليها ملح ، والنفط يرمى عليها وعدة من المقاتلين يعملون الحيلة في النقب ، وما منهم إلا من أظهر في شونته عملا معجباً وصناعة غريبة يفوق بها على صاحبه ، ثم

(١) الروضتين حـ ١ ص ٦٩
(٢) خطط المقريزى حـ ٣ ص ٢١٠ و ٣١٥
(٣) السلوك حـ ١ ص ٤٥ (٤) خطط المقريزى حـ ٣ ص ١٣٥
(٥) السلوك حـ ١ ص ٦٩ (٦) الروضتين حـ ٢ ص ١١
(٧) خطط المقريزى حـ ٣ ص ٣١٥
(٨) السلوك حـ ١ ص ٣٥٣

(١) خطط المقريزى حـ ٣ ص ٣١٥
(٢) السلوك حـ ١ ص ٦٠١
(٣) المرجع السابق ص ٤٤٧
(٤) خطط المقريزى حـ ٣ ص ٣١٥
(٥) السلوك حـ ١ ص ٤٥٠
(٦) السلوك حـ ١ ص ٤٥٧
(٧) المرجع السابق ص ٧٤٩